حكايات من القرآن

١٩

العاص بن وائل السهمي

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

هَذا هُوَ اليَومُ العاشِرُ مِنْ شَهْرِ ربيعٍ الأوَّل.. شَهْر رَسُولِ اللهِ ﷺ، حيثُ يَحْتَفِلُ المُسْلِمُونَ بِذِكْرَىٰ مَوْلِدِه الشَّريف...

ولذلكَ عِنْدَما وَدَّعَ الأولادُ جَدَّهُمْ.. وهُمْ في طَرِيْقِ الذَّهاب إلى المَدرسةِ، سَأَلَتْهُ (بُشْرَى): ما عُنْوَانُ حِكايةِ اليومِ يا جَدِّي؟

فَأَجابَها الجَدُّ: إنَّها واحِدةٌ من الحِكايَاتِ التي تَتَحدَّثُ عن مَدَى إيْذاءِ المُشْرِكِين لِلْمُسْلِمِين في مكَّةَ المُكَرَّمةِ، وعن مَدَى صَبْرِ المُسْلِمينَ، وتَحَمُّلِهم الكَثِيرَ الكَثِيرَ... وعَنِ النَّتِيْجَةِ الحَتْمِيَّةِ التي رَسَمَها اللهُ لِلفَرِيْقَيْنِ...

ولمَّا عَادَ الأولادُ مِنَ المَدْرَسَةِ، وتَنَاوَلُوا

طَعَامَ الغَدَاءِ مَعَ والِدِهِمْ ووالِدَتِهم وجَدِّهم... قال (طارقٌ): مَتَى سَتَحْكِي لنا الحِكايةَ يا جَدِّي؟

أَجابَ الجَدُّ: لعلَّ وَقْتَ السَّهْرَةِ مُناسِبٌ أكثرَ.. فَمَا هُوَ رَأيُكمْ يا أحبائي؟!.. وافَقَ الجَمِيْعُ على هَذه الفِكْرةِ..

وانْطَلَقَ الأولادُ إلى حِفْظِ دُرُوسِهم وكِتابةِ واجِباتِهم المَدْرَسِيَّةِ، بَيْنَما خَرَجَ الجَدُّ إلى إحْدَىٰ طُرقِ المَدِينَةِ الجَمِيْلَةِ.. وذلكَ بِهدَفِ التَّعَرُّفِ على مَعَالِمِها.. وآثَارِها.. وعُمْرانِها... وأمَّا (أبو خالدٍ) فَقَدِ اصْطَحَبَ زَوْجَتَهُ إلى زِيارَةِ أَحدِ المَرْضَى..

حتَّى إذا مَا أَذَّنَ المُؤَذِّنُ للصَّلاةِ ـ صَلاةِ العِشاءِ ـ دَخَلَ الجَدُّ غُرْفَتَهُ، وشَرَعَ فِي الصَّلاةِ..

ولمَّا سَمِعَتْهُ (بُشْرَى) يَقْرَأُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ.. أَسْرَعَتْ نَحْوَ بابِ غُرْفَتِهِ لتستمعَ إلى تَرْتِيْلِه

الرَّائعِ للقُرآنِ الكريمِ.. فَصَوْتُهُ في التِّلاوَةِ يُخالِطُه نَوْعٌ من الحُزْنِ.. وأحياناً يَقْطَعُهُ قَليلٌ مِنَ البُكَاءِ العَفْوِيِّ، مِمَّا يُعْطِي ذلكَ انْسِجاماً وتَجانُساً فَرِيْداً..

لكنَّها فُوجِئَتْ بِأخوَيْها (طارق وخالد) قد وَقَفا إلى جِوارِ جَدِّهما..!!.

وهكذا قَرَأَ الجَدُّ فِي الرَّكْعَةِ الأولى سُورةَ الفاتحةِ وبَعْدَها بَعْضَ الآياتِ الطِّوالِ.. وفي الرّكعَةِ الثانيةِ.. قَرأَ بعدَ الفاتِحَةِ سُورَةً.. ردَّدها الأطفالُ معه.. إنَّها سُورةُ الكَوْثَرِ:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣].

وبعدَ الصَّلاةِ مُباشَرَةً، التفتَ الجَدُّ إلى (طارق) وَسَأَلَهُ وَهُوَ يَبْتَسِمُ: لماذا كُنْتَ تَمدُّ

جَسَدَكَ فِي السُّجُودِ.. وكأنَّكَ تَسْبَحُ في بِرْكَةِ ماء..؟!

أَطْرَقَ (طارِق) رأسَه قليلاً.. ثُمَّ قال: كنتُ أحاولُ أَنْ يَصِيْرَ طُولي كَطُولِكَ يا جَدِّي.. فأنا أحبُّ أَنْ أُقَلِّدَكَ فِي كُلِّ شيء ، حتَّى فِي الطُّولِ!!

فَأَخَذَهُ الجَدُّ ، ثُمَّ قَبَّلَهُ... وتقدَّمَ إلى (خالد وبُشْرَى) فَقَبَّلَهُما أيضاً.. ثم قال لهم: يَعْلَمُ اللهُ أَنِّي أُحِبُّكم كثيراً..

صاحَ الأطفالُ: ونحنُ يا جَدِّي.. نُحِبُّكَ حُبّاً كَثِيراً.. ويعلمُ اللهُ مَدَىٰ سعادَتِنا بِوُجودِكَ بَيْنَنا...

وقالتْ (بُشْرَىٰ): لذلكَ لن نَدَعَكَ تُغادِرُ اللاذقيةَ أبداً؛ فقدِ اعْتَدْنا على حِكاياتِكَ الجَمِيْلَةِ.. وسَعِدْنا بِكَ.. يا أَحْلى جَدٍّ في هذا العَالَمِ!!

فُتِحَ البابُ الخارِجيُّ للبيتِ.. ودَخَلتْ

(أُمُّ خالد) وزَوْجُها.. ولمَّا وَصَلا إلى غُرْفَةِ الجَدِّ قالتْ (أمُّ خالد): لقد اجتمعَ الأولادُ حَوْلَ جَدِّهم يَنْتَظِرُونَ الحِكايَة التي سَيَحْكِيْها لَهمْ..

وبعدَ نِصْفِ ساعةٍ انتهى الجَمِيْعُ مِنْ تَنَاوُلِ الشَّايِ بِالنَّعْنَاعِ ، ثُمَّ جَلَسُوا يَسْتَمِعُون إلى الجَدِّ (الشَّيْخِ حُسَين) فَفَاجَأَهم بالقَوْلِ: والآن نَبْتَدِئُ الحِكايَةَ:

في شِعَابِ مَكَّةَ المُكَرَّمةَ

فِي مَكَّةَ المُكَرَّمةَ ، عاشَ (العاصُ بنُ وائِلٍ السَّهْمِيُّ) في عائلةٍ مَعْرُوفةٍ.. وتَدَرَّجَ في الحَياةِ ، وأصبحَ مِنْ كبارِ التُّجَّارِ والأغنياءِ... ومِنْ كبارِ الزُّعَماءِ العَرَبِ وَقْتَئِذٍ.. وعُرِفَتْ عَنْهُ الحِكْمَةُ والعَقْلُ الرَّاجِحُ.. حتَّى إنَّ النَّاسَ كانُوا يَلْجَؤُونَ إليه لِحَلِّ مُشْكِلاتِهم ، وفَضِّ مُنازَعاتِهم وخُصُوماتِهم..

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾

ولمّا شاءَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتعالى أَنْ يَهْدِيَ النَّاسَ إلى طَرِيْقِ الحَقِّ ، ويُبْعِدَهم عن الأُمُورِ التي كانتْ تُلازِمُهُم: كَشُرْبِ الخُمُورِ ، ومُمارسةِ الفَواحشِ ، وعِبادةِ الأَصْنَامِ ، وَوأْدِ البناتِ ، والتَّعامُلِ بالرِّبا.

أرسلَ اللهُ إليهم رَجُلاً منهم ، وهو رَسُولُ اللهِ ﷺ

فَمَا كَانَ مِنْ (العَاصِ بِنْ وائِلٍ) إلاّ العِنادُ والكُفْرُ.. ولَيسَ من سَبَبٍ في ذٰلِكَ إلاَّ الحَسَدُ والحِقْدُ ، لذلكَ تَساءَلَ: لماذا اخْتَارَ اللهُ محمداً ، وهُوَ الرَّجُلُ الفَقِيْرُ ، الَّذي لا سَنَدَ له..؟ ولماذا لم يَخْتَرني أنا ، أو أَحَدَ زُعَماءِ قُرَيْشٍ؟!

قالتْ (بُشْرى): فماذا فَعَلَ العَاصُ يا جَدِّي؟

أَجابَ الجَدُّ ، وهوَ يَفْرِكُ لِحْيَتَهُ بِيَدِهِ:

عِنْدَما شَعَرَ العاصُ أنَّ مكانَتَهُ وزعامَتَهُ قاربتْ مِنَ الزَّوالِ ، بسببِ دِيْنِ محمدٍ ﷺ ، فما كان منهُ إلا أنْ جَمَعَ حَوْلَهُ السُّفَهاءَ والشَّبابَ الذين لا يَعْمَلُونَ شيئاً ، وَراحَ يُغْرِيهم بالمالِ ، ويَعِدُهُمْ بِتَحْسِينِ وَضْعِهم المَعِيْشِيِّ.. ولكنْ شَرْطَ أَنْ يُساعِدُوه على تَشْوِيهِ دَعْوَةِ المُسْلِمينَ.. وعلى إيْذَاءِ المُؤْمِنينَ..

ثمَّ عَمَدَ إلى زُعَمَاءِ قُرَيش.. فَجَمَعَهُمْ عند الكَعْبَةِ المُشَرَّفةِ.. وطَرَحَ مَوْضُوعَ دَعْوةِ رَسُولِ اللهِ.. ثمَّ اتَّفَقُوا على التَّوجُّهِ إلى بَيْتِ عَمِّهِ أبي طالبٍ..

وبالفِعْلِ دَخَلُوا على أبي طالبٍ.. ثم وَقَفَ (العاصُ) وقفةَ الرَّجلِ الشَّامخِ ، ثمَّ قال: يا أبا طالب! إنَّ ابنَ أخيكَ ـ ويقصدُ

رَسُولَ اللهِ ﷺ - قَدْ سَبَّ آلهتنا ، وعابَ دِيْنَنا ، وسَفّه أحْلاَمَنا ، وضَلَّلَ آباءنا ، فإمَّا أَنْ تَكُفَّهُ عَنّا ، وإمَّا أَنْ تُخَلي بَيننا وبينه ، فإنك على مِثْلِ ما نحنُ عليهِ من خِلافِه ، فَنَكْفِيْكَهُ..!!

إنَّهُ الثَّباتُ على دِيْنِ اللهِ تَعَالى!!

حَاوَلَ طارق أَنْ يَسْتَفْسِرَ عَنْ أَمْرٍ ما ، لكنَّ الجَدَّ لم يَنْتَبِهْ إلى حَرَكاتِهِ ، وتَابَعَ قائلاً:

لكنَّ الطَّامَّةَ الكُبْرى التي أصابَتِ (العَاصَ) هي الخَبَرُ الذي نَزَلَ على رَأسِه كَصَاعِقَةٍ لا تُبْقِي ولا تَذَر!! لَقَدْ وَصَلَهُ خَبَرُ إسلامِ ابنه هِشامِ بنِ العاصِ!!.

فَاسْتَدْعَاهُ (العاصُ).. فَرَغَّبه.. وأَرْهَبَهُ.. ثم هَدَّدَه.. لكنَّ الشَّابَّ عَلِمَ يَقيناً حَقَّ الإيمانِ.. ودَجَلَ الباطِلِ!!

وبالتَّالي حَوّلَ أُسْلُوبَه إلى أُسْلُوبِ السُّخْرِيَةِ والاسْتِهْزاءِ..

فَتَارَةً: إذا رأىٰ وَفْداً.. هُرِع إليه وأَخْبَرَهُ بسياسةِ رَسُولِ اللهِ.. وبالتّالي حاولَ إقْناعَ الوفدِ بِعَدَمِ الاقْتِرابِ مِنْ أولئكم الثُّلَّةِ.. الذين تَرَكُوا عِبادَةَ الأوثانِ ، وأَعْلَنُوا التَّوحيدَ المُطْلَقَ للهِ وَحْدَهُ..

لقد كانَ يقولُ للنَّاسِ: قَدْ جاءَكم ملوكُ الأرضِ ، الذين سَيَغْلبُونَ ـ غداً أَوْ بعدَ غدٍ ـ مُلُوكَ كِسْرىٰ وقَيْصَر!!

ثُمَّ زادَ أَمْرُ العَاصِ سُوءاً ، فانْقَلَبَ إلى الضُّعَفاءِ والفُقَراءِ والعَبِيدِ ، والذين أَعْلَنُوا إيمانَهُمْ بالرِّسالةِ الخالدةِ.

فراحَ يُعَذِّبُهم تارةً ، ويَسْخَرُ مِنهم ويَسْتَهْزِئُ بهم تارةً أُخْرَىٰ.. ويَظْلِمهُمْ تارةً ثالثةً..!!

وذاتَ ليلــةٍ رأىٰ الصَّحــابــيَّ (خَبَّــابَ بــن الأَرَتِّ) ، فقال للمُشْرِكين: ما قَوْلُكُمْ في أن تَضْحَكُوا على هذا العبدِ الصُّعْلُوكِ؟

فأتاهُ ، فطلبَ مِنه أَنْ يَصْنَعَ لَهُ سَيْفاً قَويّاً جَمِيلاً.. ولمَّا أتمّه.. وقدَّمهُ إليه.. قالَ خَبَّابٌ: أُريدُ ثَمَنَ السَّيْفِ..

فهَزَّ العاصُ رَأسَهُ وقال: لا أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمحمَّدٍ..

فقال خَبَّابٌ بكلِّ ثباتٍ يقفُ الدَّهْرُ أَمامَهُ مَبْهُوتاً مَشْدُوهاً: لَنْ أَكْفُرَ بِهِ حَتَّىٰ تَمُوتَ ثم تُبْعَثَ!!.

أُبْعَــثُ بَعْــدَ المَــوْتِ!! ـ صــاحَ العــاصُ مُسْتَهْزِئاً ـ وكيفَ تَعُودُ العِظامُ بعدما تَفْنَى؟.. وأينَ اللحمُ والدَّمُ؟! على كُلٍّ إذا رَجَعْتُ إلى الدُّنيا ، فسوفَ أُعِيْدُ لَكَ المَالَ كُلَّهُ!!

لكنْ ماذا يَفْعَلُ خَبَّابٌ ـ وهو العَبْدُ الفَقِيْرُ المِسْكِينُ ـ أمام ذلكَ الطَّاغِيةِ الذي يَظُنُّ نَفْسَهُ الرَّبَّ الأَعلى على الأرضِ.

وما هِيَ إلاّ لَحَظاتٌ حتَّى أَنْزَلَ اللهُ فِي العَاصِ آياتٍ تُتْلَى إِلَى يَوْمِ القِيامَةِ:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ ـ ٨٠].

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾

(بُشْرَى) يَبْدُو عليها الشُّرُودُ.. وكأنها تُفَكِّرُ في أَمْرٍ ما..!

لكنَّ والِدَتَها قَطَعَتْ عليها ذلك بِقَولِها: وبماذا تُفَكِّرين يا بُشْرَىٰ؟!.

نَعم يا والدَتي ـ قالَتْ بُشرى ـ كنتُ أَتذكَّرُ سُورةَ الكَوْثَر.. ولم أَفْهَمْ من المَقْصُودُ بِالأَبْتَر.. وماذا تَعْنِي كَلِمةُ الأَبْتَر..؟!

قالَ الجَدُّ: أَحْسَنْتِ يا بُشْرَىٰ.. فالسُّؤالُ له علاقةٌ قويةٌ بِحكايةِ العاصِ بنِ وائِلٍ.. فالأبترُ: هو الشَّخْصُ الذي لا وَلَدَ لَهُ مِنَ الذُّكور..

لذلكَ جاءَ رَدُّ اللهِ عليه.. وفي ذلكَ دِفاعٌ لا مَثِيلَ له عن الرَّسُولِ ﷺ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي: إِنَّ مُبْغِضَكَ يا محمَّدُ ، هُوَ الأبترُ..

وكيف لا يُدافعُ اللهُ عَنْ رَسُولِهِ أمامَ المُسْتَهْزِئِينَ؟ لذلك أُنْزِلَ قَوْلُهُ تعالى:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٨ ـ ٣٩].

قال (أبو خالدٍ): ولكنْ يا والدي.. صَحيحٌ أَنَّ مُشْرِكي مكَّةَ.. قدِ اسْتَهْزَؤُوا بالمُسْلِمين.. وتَغامَزُوا عليهم.. واتَّهَمُوهم اتهاماتٍ شَنِيعَةً.. ولكن هل استفادَ (العاصُ) وأمثالُه من ذلك أيَّ شيءٍ؟!

تابَعَ الشَّيْخُ الحِكايةَ: أبداً ، لقد اسْتَفَادُوا.. ويَهُزُّ الجَدُّ رَأْسَهُ وَيَضْحَكُ..!!

لقد بَشَّرَهُمُ القُرآنُ الكَرِيْمُ:

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٨].

وماذا يَسْتَفِيْدُ الذي يَقِفُ في وَجْهِ الحَقِّ والهِدايَةِ يا أحبابي إلاّ الخِزْيَ في الدُّنيا.. ويوم القِيامَةِ يُساقُ إلى نارِ جَهَنَّمَ.. ليُحْشَرَ مع المُسْتَكْبِرِيْنَ ، والطُّغاةِ ، والمُجْرِمِيْنَ:

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ

ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٦].

إِنَّهُ فَرْقٌ كبيرٌ ـ قالتْ (أُمُّ خالد) ـ بينَ وُفُودِ الرَّحْمنِ إلى جَنَّاته... وبينَ مَنْ يُسْحَبُونَ على وُجُوهِهِمْ إلى نارِ جَهَنَّمَ وبِئْسَ القَرارِ..

ورَفَعَ الشَّيخُ يديه: اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنا كالعاصِ وأَمْثَالِه.. واجعَلْنا كَخَبَّابٍ وَبلالٍ وصُهَيْبٍ، واحْشُرْنَا تحتَ لِواءِ شَفاعَةِ سَيِّدنا رَسُولِ اللهِ..

بَيْنَما كان الجَمِيْعُ يُرَدِّدُونَ: آمين.. آمين.. يا رَبَّ العَالَمِيْنَ..

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ